الفصل السابع

فعلٌ سياسي ذكي
"مسجد ميونيخ" ... وبداية تشكل الملامح

في السادس من آب/ أغسطس ١٩٥٦ - تلقى "غرهارد فون منده" مذكرة من "تيودور أوبرليندر، وزير شئون اللاجئين بألمانيا الغربية ... مذكرة ترسم ملامح هدف قومي ذي أهمية بليغة يستلزم النهوض به طلب المساعدة من مصدر بدا مستبعدا ... "مسلمو ميونيخ".

obeikandi.com

لقد أورد "أوبرليندر" – في مذكرته – أن ألمانيا الغربية كانت تؤوى آلاف اللاجئين، إلا أن كثيرا منهم قد تم تجنيده من قبل كيانات استخباراتية أجنبية، مثل أمكوموليب ... واستطرد قائلا إنه لن يسمح لهذا النهج أن يستمر لأن ألمانيا الغربية بحاجة إلى أولئك المسلمين. فعن قريب، ستهوى معاقل الشيوعية ليعود هؤلاء إلى أوطانهم الأم زعماء لها وقادة. وعندها ... سيكون لهم دور في تحقيق الهدف الأسمى للسياسة الخارجية لألمانيا الغربية: توحيد الألمانيتين -الشرقية والغربية- واستعادة مساحات شاسعة من أراض ألمانية استولى عليها كل من الاتحاد السوفييتي وبولندا في أعقاب الحرب الكونية الثانية.

ومضى "أوبرليندر" في مذكرته، حيث أشار إلى "أن النجاح الذي سيحرزه أولئك اللاجئون سيكون له أثر إيجابي طاغ في تحقيق أهداف ألمانيا في أوطانهم الأم" ... تلك الأهداف التي شرع يصفها في كلمات ذات نبرة انتقامية حادة ... "إن

obeikandl.com

أهداف اللاجئين السياسيين لتتشابك وتأتلف وفق علاقة ارتباطية بالجهود الألمانية الرامية لتحقيق وحدة الألمانيتين وإلغاء مقررات اتفاقية بوتسدام [٦٤] بشأن حدود نهرى الأودر والنايسه" [٦٥].

ومن بين ثنايا النبرة البيروقراطية التى صيغت بها المذكرة، كانت رسالة واضحة جلية تطل برأسها: إن ألمانيا الغربية تريد إعادة ترسيم الحدود، واستعادة أقاليمها الشرقية المغتصبة التى تقع خلف نهرى "الأودر" و"النايسه". فلعقود ... كان حد "الأودر- النايسه" أكثر المواضيع حساسية فى السياسة الخارجية الألمانية. إن النهرين يفصلان ألمانيا الشرقية عن بولندا، وعقب اتفاقية "بوتسدام" ١٩٤٥ -، والتى قسمت الأراضى الألمانية ما بين قوى مختلفة، صار حد "الأودر- النايسه" فاصلا بين البلدين. أما بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتى ... فقد صار لكل منهم إقليم احتلال فى الأراضى الألمانية، حيث أضحى

الإقليم الذى ظفر به الاتحاد السوفييتى يسمى "ألمانيا الشرقية"، فيما عرفت الأقاليم الثلاثة الأخرى – مجتمعة – "بألمانيا الغربية".

إلا أن ثمة حقيقة نادرا ما تذكر ... إذ لا يعلم الكثيرون أن ثمة إقليمى احتلال آخرين يقعان إلى الشرق من نهرى "الأودر" و"النايسه" – أحدهما كانت تديره بولندا، وهو إقليم ضم أجزاء كبيرة من "بروسيا"، و"سيليزيا"[٦٦]، و"بوميرانيا"[٦٧]، فضلا عن ثالث أكبر مدن ألمانيا، "برسلاو" (المعروفة – حاليا – باسمها البولندى: "فروتسواف"[٦٨]). وبالإضافة إلى ذلك، اقتطع الاتحاد السوفييتى جانبا آخر من ألمانيا، وهو النصف الشرقى من بروسيا الشرقية الذى تضمن مدينة "كونيغسبرغ" – والذى أصبح اسمها "كالينينغراد"[٦٩].

وبخلاف الأقاليم الأخرى، فإن هذين الإقليمين لم تستردهما ألمانيا ألبتة، إذ اقتطعت بولندا الإقليم الأول، فيما اقتطع الاتحاد السوفييتى الإقليم الثانى. أما البولنديون فلم يربحوا كثيراً، إذ كان السوفييت قد اقتطعوا أجزاء من شرق بولندا ... فلم يكن ما اقتطعته بولندا من أراض ألمانية إلا تعويضا عن تلك المقتطعة منها. وبخصوص الأراضى الألمانية التى تمددت فى أعماق أوروبا الشرقية لقرون عديدة، فقد أضحى حدها – عقب الحرب الكونية الثانية – عند نهرى "الأودر" و"النايسه" ... اللذين يجريان من بحر البلطيق جنوبا حتى حدود تشيكوسلوفاكيا.

فإذا كان ما سبق يبدو متسقا وفق خريطة "الاستراتيجى المسترخى"، فإن إعادة ترسيم حدود وسط أوروبا قد أضافت إلى المعاناة التى سببتها الحرب الكونية الثانية. فالأقاليم الألمانية المغتصبة كانت غاصة بألمان ذوى إثنيات عديدة. وفى غضون أشهر قلائل، كان هؤلاء قد قُتِلوا أو طُردوا فى وحشية

بالغة، بواسطة الجيش الأحمر فى البداية، ثم خلال المذابح التى باركتها الدولة. فبالتوازى مع أولئك الألمان من ذوى الإثنيات المختلفة النازحين إلى بلدان أخرى، فإن ما يربو على ١٣ مليون لاجئ ألمانى - فى واحدة من أكبر رحلات النزوح فى العصر الحديث - قد أجبروا بالقوة على ترك منازلهم. وقد انتهى المطاف بغالبيتهم فى ما يعرف حاليا بألمانيا الغربية ... إلا أن مئات الآلاف قد لقوا حتوفهم خلال رحلة النزوح تلك.

أما "تيودور أوبرليندر"، فكان المتحدث الرسمى الرئيسى عن أولئك "المطرودين" ... الذين خاضوا، خلال حقبتى الخمسينيات والستينيات، معركة دفاعية وقائية ضد نفر من "الألمان الغربيين" ممن أرادوا إرساء علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفييتى أو الاعتراف بحد "الأودر- النايسه". إن "أوبرليندر" هذا ... هو الشخص ذاته الذى اشترك فى الانقلاب الفاشل فى ميونيخ عام ١٩٢٣، والذى تم اعتقال هتلر بموجبه أشهرا كتب خلالها كتابه "كفاحى" ... وهو الشخص ذاته الذى ترأس إحدى أوليات وحدات الجيش الألمانى المكونة من أقليات سوفييتية، واسمها "برغمان" Sonderverband Bergmann. وكانت ولادة "أوبرليندر" فى البلطيق فى عام ١٩٠٥ ... لذا، فقد كان مدركا لقيمة الأقليات "غير الروسية". وقد شارك "أوبرليندر" فى بعض المذابح التى استهدفت اليهود، إلا أنه قد عارض سياسة "النازى"حيال الأراضى المحتلة. ومثله فى ذلك مثل "غرهارد فون منده"، رأى "أوبرليندر" ضرورة أن تكون ألمانيا حليفة للأقليات "غير الروسية". ومن أجل ذلك، خسر الرجل منصبه فى الحزب الديمقراطى المسيحى، كذا، فقد خسر "رتبته" العسكرية. إلا أن هذا قد جرى لمصلحته بعد انقضاء الحرب ... إذ جعله يبدو وكأنه ضحية للنازى، لا ذلك "الحزبى" العالم ببواطن الأمور، والذى خسر منصبه نتيجة الصراعات

والنزاعات الحزبية. كل هذا، علاوة على قوة حزبه التصويتية، كان كافيا لإقناع "كونراد أديناور" – أول مستشارى ألمانيا الغربية – بأن يعين "أوبرليندر" وزيرا لشئون اللاجئين.

ولقد كان "أوبرليندر" كما بدا ... العضو الأكثر يمينية فى حكومة ألمانيا الغربية. وفى سنوات لاحقة، تم اعتباره تجسيدا للجذور النازية للديمقراطية الوليدة. إذ أوضحت المذكرة التى أرسلها إلى "فون منده"، والواردة فى مستهل الفصل الحالى، ذلك التوجه اليمينى المتطرف ... إذ أراد أن يعاد ترسيم الحدود الألمانية، كذا فقد أراد تعاون "فون منده" للسيطرة على "الأصول" التى رأى أنها قد تساعد فى تحقيق إعادة الترسيم تلك ... تلك الأصول المتمثلة فى "الأجانب" ممن يحيون فى ربوع ألمانيا الغربية، والذين حاربوا لحساب ألمانيا خلال الحرب الكونية الثانية.

هذا، وقد كان "فون منده" يحكم قبضته على غالبية جماعات "اللاجئين" ... إذ كان يقوم بتمويل كل من البلغار والرومانيين، وكذلك الأوكرانيين والتشيك. إلا أن أحداث العام السابق قد أظهرت – آنذاك – أنه كان يفقد سيطرته على المسلمين. فبالمقارنة مع أمكومليب، فإن الأوستمنستريوم كانت أضعف – حيث عمد الكثير من المسلمين إلى العمل لصالح الأمريكيين. فإذا ما تذكرنا رحلة "كونيهولم" إلى تركيا وأوروبا، لأدركنا كونها شددت على هدف "واشنطن" الأكثر طموحا ... ألا وهو استخدام المسلمين فى حروبها الدعائية الكوكبية.

وعلى امتداد عقود أربعة هى عمر "الحرب الباردة"، كانت ألمانيا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية حليفين قويين ... فالولايات المتحدة قد ساندت نشأة ألمانيا الغربية والتحامها بالمجتمع الدولى ... ألمانيا الغربية التى أضحت حليفا وفيا

للولايات المتحدة فكانت ترفد الائتلاف العسكرى "الغربى" بقوات مثلت سواده الأعظم.

إلا أن العلاقة لم تخل من بعض منغصات حالت دون انسيابها سلسة على الدوام ... خاصة وأن الأجواء – آنذاك – كانت عصيبة كساعة العسر ... فألمانيا الغربية كانت قد نالت، للتو، سيادتها الكاملة غير المنقوصة، وكانت تتقدم بمقترحات للاتحاد السوفييتي مما أثار مخاوف الولايات المتحدة وقلقها خشية أن تقبل ترتيبات كتلك التي قدمت إلى النمسا بأن تبقى على الحياد في صراع المعسكرين مقابل إعادة توحيد أجزائها الشرقية والغربية. بل لقد ظن المسئولون الأمريكيون أن تقدم ألمانيا الغربية على "إجلاء" أمكومليب وراديو أوروبا الحرة عن ميونيخ، وناقشوا كيف السبيل لتسريح العاملين بهما.

أما خطة "أوبرليندر فقد شرعت تثير هواجس واشنطن ... فالاستخبارات الأمريكية قد أرادت أن تلتحق الأقليات السوفييتية في ميونيخ براديو الحرية وراديو أوروبا الحرة، وذلك للقيام بأنشطة مستترة ... إلا أن هذا الترتيب قد يتداعى بالكلية إذا ملكت ألمانيا الغربية زمام تلك الأقليات. فوفقا لما أدركه المسئولون الأمريكيون، فإن العقل المدبر والقوة الدافعة وراء تلك السياسة تمثلا في "أوبرليندر" والدبلوماسيين بوزارة الخارجية الألمانية من أمثال الدكتور "أوتو برويتيغام"، الدبلوماسي والمحامي الألماني، والذى كان، كأوبرليندر، متورطا لأذنيه في الحركة النازية.

وفى تقرير لوزارة الخارجية الأمريكية عن "أوبرليندر" وأولئك الدبلوماسيين، ومنهم "برويتيغام"، ذهبت الوزارة إلى "أنهم ليسوا ذلك النمط من النازيين الراغبين في أن توجد في كل بيت ألماني نسخة من "كفاحي" لهتلر ... إنما قد

صاغوا القضية الوطنية الألمانية وفق منظور قومى إمبريالى بحيث لا يعلو صوت فوق صوتها. وفى رسالة "سرية"، قالت الخارجية الأمريكية إن أداتهم الرئيسية كان البروفيسور/ غرهارد فون منده، ومكتبه - "مكتب الأجانب بلا وطن". كذا، فقد ذهبت - فى الرسالة ذاتها - إلى أن "مهمة فون منده" لم يكن يعنيها مصير تلك الشعوب، بل كان مصير "الألمان" هو جوهر ما يعنيها ... ففون منده ورؤساؤه لا نية لديهم لإتاحة المجال أمام أمريكيين هواة تنقصهم الخبرة للخوض فى هذا الشأن". كذا، فقد ورد بالرسالة أن "فون منده" كان يتعامل مع جماعات للاجئين تفتقر إلى الديمقراطية، بل إن بعضها كانت له ارتباطات "رخيصة ومشينة" مع النازى.

أما وكالة الاستخبارات المركزية، فقد أشارت إلى أن "فون منده" قد أسهم فى تشكيل جماعة لمساعدة اللاجئين ... جماعة تكونت من ضباط ألمان كانوا يقودون قوات الأقليات السوفييتية خلال الحرب الكونية الثانية، وأضحوا مشغولين، فى أعقابها، بشأن مصائرهم فى ألمانيا الغربية. كذا، فوفقا للوكالة، كان "فون منده" يدير جماعة مساعدة اللاجئين تلك من مكاتبه بدوسلدورف ... وفيما قد يعد ما سبق مبالغة وتهويلا، إلا أن الجماعة المذكورة قد كانت قائمة بالفعل حيث أظهرت وثائقها وسجلاتها أنها قد شكلت - بالأساس - من ضباط سابقين بالجيش الألمانى وأسراب الدفاع - كانوا قادة لأفراد تلك الأقليات ... كذا، فقد أظهرت ارتباط "فون منده" الوثيق بتلك الجماعة. وفى أواخر عام ١٩٥٥، قررت الوكالة أن تعمد إلى القيام بفعل ما ضد "الرجل" الذى سعت ذات يوم إلى تجنيده لصالحها.

ففى ملف "الرجل" ..."فون منده"، كتب أحد عملاء وكالة الاستخبارات المركزية: "لقد أعددت ملفا صغيرا عن (الرجل) وأعوانه ... إذا، فلعله يصبح فى مقدورنا

القيام بشراء ولاء أحد أتباعه بغرض الحصول على نسخ مصورة من ملفات معلوماته".

إلا أنه، وبعد مضى أشهر قلائل، عنت للوكالة فكرة أخرى. إذ كانت ثمة ملاحظة في طيات ملف الحكومة الأمريكية ... ملاحظة من "إسحاق باتش"، والذى كان قد تحدث - قبل ذلك بشهرين - إلى "غرهارد فون منده". وقد ذكر "باتش" أن "فون منده" قد أصابه الضيق لكون ألمانيا الغربية في طريقها - آنذاك- لإقامة علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفييتي. وهنا وجد عميل وكالة الاستخبارات المركزية، المذكور آنفا، مدخلا، فقال" "إننى كنت أسعى إلى إقناع فون منده بأن يتم تفتيش مكاتبه في دوسلدورف، بما فيها من ملفات، وكذا تصويرها فوتوغرافيا ... إلا أن أحدث المعلومات الواردة إلى تبدو أنها تشير إلى أنه من الأفضل لنا أن نعمد إلى تجنيده". كذا، فقد أشار هذا العميل إلى أنها ستكون المرة الثالثة خلال أحد عشر عاماً تلك التى تتقدم فيها الاستخبارات الأمريكية من "فون منده" بمقترحات وأفكار ليذكر - بأسى - أن اتفاقا كان قاب قوسين أو أدنى من الدخول إلى حيز التنفيذ، إذ كانت تنقصه فقط المصادقة عليه ... وذلك في عام ١٩٤٩ . واستطرد العميل قائلا: "إلا أن الأمر قد أسقط برمته في ميونيخ لكون فون منده قد تبنى اقترابا منهجيا للمشكلة، فيما كان مكتب وكالة الاستخبارات المركزية في ميونيخ غارقا في برنامج لتجنيد "العملاء" اتسم بالعشوائية والتخبط وانعدام التخطيط".

وفى المرة تلك ... كانت الوكالة مستعدة لأن تنهج النهج المتبنى من قبل "فون منده" ... إذ كان مرفقا بالخطة الرسمية للتجنيد قائمة ضمت عملاءه، ومن بينهم "ولى قيوم خان". فوفقا لما كتبه عميل "الوكالة" الآنف الذكر، فقد عمد "قيوم" إلى استبعاد "روسى نصار" لكونه تلقى أموالا من وكالة الاستخبارات

المركزية للترويج لدعاية أمريكية خلال موسم الحج. أما "الوكالة" فقد قامت بمراقبة "فون منده" رقابة لصيقة ... حيث لاحظت – فى آذار/ مارس ١٩٥٦ – أن "الشتازى"، أو "جهاز أمن الدولة والاستخبارات بألمانيا الشرقية"، كان يبحث عن خريطة لمكتب "فون منده"، وما لذلك من دلالة على أن "الشتازى" كانت لديه خطط وترتيبات بشأن "فون منده".

وفى بدايات عام ١٩٥٧، طلب إلى مكاتب "وكالة الاستخبارات المركزية" فى ألمانيا أن تدلى بتعقيباتها بشأن الخطط السوفييتية لتجنيد المسلمين. ويبدو أن هذا الطلب قد جاء عقب افتضاح أمر عميلين مدعومين من قبل الولايات المتحدة الأمريكية فى انخراطهما مع بعض المسلمين ... لقد كانت الوكالة تسعى إلى رصد أية انكشافات تمس عملياتها. أما مكتبها فى ميونيخ، فقد تقدم – ثانية – باقتراح لتجنيد "فون منده" ... فوفقا للقائمين على المكتب، فإنه "إذا ما تم تجنيد فون منده فسيمكنه مباشرة إعداد ثبت أو حصر بالمسلمين". إلا أن "فون منده" لم يكن ذا اهتمام بالعمل لحساب الأمريكيين، إذ بدا غاضباً، ولعله فى ذلك قد عكس الشعور الألمانى الغربى المتنامى بالثقة والاعتداد بالنفس. وكان "فون منده" يرى أن الأقليات، بمن فيهم المسلمون، سهام هامة فى جعبته، وكانت لديه خطط لاستعادتهم ثانية.

فى أواخر آذار/ مارس ١٩٥٦، حل "نور الدين نقيب خوجة نمنقانى القارى" بميونيخ. و"نمنقانى" هو أحد الناجين من أهوال معتقلات التعذيب السوفييتية، كذا فقد كان "إماما" بإحدى وحدات "أسراب الدفاع" الألمانية، فضلا عن حمله أوسمة عسكرية مرموقة كالصليب الحديدى ... لذا، فقد كان "الرجل" الاختيار الأمثل لتوحيد صفوف مسلمى ميونيخ.

كان ذلك الطرح طرحا ارتآه "فون منده". وتماشيا مع رغبة "تيودور أوبرليندر" للسيطرة على اللاجئين، عمد "فون منده" إلى دعوة "نمنقاني" إلى ألمانيا ليترأس مكتبا جديدا استهدف توحيد مسلميها. فإلى ذلك الحين، كانت المنظمة الوحيدة في ألمانيا، والتي يمكنها ادعاء القيام بذلك، هي "الجماعة الدينية الإسلامية" لإبراهيم كوجا أوغلو ... إلا أنها كانت واقعة - آنذاك - تحت نفوذ أمريكي طاغ. لقد كان "نمنقاني" أحد رجال "فون منده" ممن دانوا بولاء لألمانيا ... ولاء دام طيلة سنى الحرب الكونية الثانية.

أجل ... فحين دفع بتنصيب "نمنقاني" إلى أروقة البيروقراطية الألمانية، بدا سجل خدمته الطويلة لألمانيا أهم مؤهلاته قاطبة. ولم يكن الرجل ذلك النمط الذى يعهد إليه بتوزيع عبوات CARE لمصلحة الأمريكيين، أو ذلك الذى يتصدر مؤتمراتهم الصحافية ... فالرجل، وبحق، "مخلوق سياسى" من الطراز الأول، لكنه "مخلوق" يرضى طواعية بخدمة ألمانيا الغربية مبديا آيات الولاء لها ... أى، "مستخدم" لدى الدولة يقبض منها راتبا لقاء خدماته.

لقد كان "فون منده" يعد الترتيبات لوصول "نمنقاني" إلى ألمانيا. ففى وقت باكر من عام ١٩٥٦، قامت وزارة شئون اللاجئين بألمانيا الغربية، والتى كان يترأسها "أوبرليندر" آنذاك، بمخاطبة "فون منده" بشأن تمويل جماعة "كوجا أوغلو". فمن بين جميع جماعات اللاجئين بألمانيا، يبرز المسلمون كالأدنى تنظيما والأكثر تشرذما. لذا، فقد رأت الوزارة أن "كوجا أوغلو" لا يرقى أن يكون "خيارها" الصائب المخول بتوحيد أولئك المسلمين. فحين كتب "كوجا أوغلو"، قبل ذلك بعام، إلى وزارة الشئون الاجتماعية البافارية طالبا بعضا من مال، أورد المسئولون بالوزارة أن "غالبية المسلمين المكونين لجماعة كوجا أوغلو قد كانوا يخدمون فى الجيش الألمانى إبان الحرب الكونية الثانية... لذا، تعن

الحاجة إلى تناول هذا الطلب تناولاً صائباً حكيماً".

بيد أن "فون منده" قد تابع محاولاته ... فقد كتب خطابا إلى وزارة الشئون الاجتماعية بتاريخ العاشر من كانون الثانى/ يناير ١٩٥٦ مشيرا إلى أن إعطاء "كوجا أوغلو" مبلغا من المال، لمرة واحدة لا تتكرر، من شأنه إحداث صدى جيد لدى البلدان الإسلامية فى المشرق"، لكنه أضاف أن ألمانيا بحاجة إلى المزيد ... بحاجة إلى "إمام أكبر" لعموم مسلميها. وأضاف "فون منده" فى خطابه أن "إماما كهذا لا يوجد فى ألمانيا، لكننى أعرف من تسعده العودة إلى ألمانيا للإشراف على مسلميها... إنه نور الدين نمنقانى".

إن "فون منده" و"نمنقانى" كانا صديقين قديمين تعارفا خلال الحرب الكونية الثانية. أما "نمنقانى"، فقد تم القبض عليه بواسطة الشرطة السرية السوفييتية، وذلك فى تركستان، حيث سيق إلى معتقل بغربى روسيا. وبعد مضى شهر على الغزو الألمانى لروسيا، شن الجيش الألمانى هجوما على معسكره، ليتم بذلك تحريره وإطلاق سراحه. وعقب ذلك بأربعة أشهر، أضحى "نمنقانى" إماما للكتيبة ٤٥٠ مشاة خلال هجومها بالدبابات ... ذلك الهجوم المسمى عملية "النمر ٢"، نسبة إلى إطلاق اسم "النمر البنغالى"، أو "النمر الملكى" على نوع من دبابات استخدمت فى الهجوم. وخلال الحرب، أضحى "نمنقانى" إماما لسلاح الشرق التركستانى التابع لأسراب الدفاع الألمانية ... تلك الوحدة التى شاركت فى قمع انتفاضة وارسو عام ١٩٤٤. وتقديرا لخدماته، منح "نمنقانى" وسام "الصليب الحديدى" من الطبقة الأولى والثانية، وهما اثنان من أرفع الأوسمة العسكرية الألمانية.

وفى نهاية الحرب، أمضى "نمنقانى" سنتين بأحد المعسكرات الأمريكية لأسرى الحرب فى إيطاليا، ثم ارتحل - بعد ذلك - إلى ألمانيا ليحيا هناك ... حيث حل

ضيفا على "فون منده" ببيته على نحو منتظم، وهناك ... كان "نمنقاني" يطهو صنوفا من الطعام الأوزبكي ويتبادل الأحاديث مع "فون منده"[٧١]، ثم تلا ذلك ارتحال "نمنقاني" إلى تركيا ... إما للعمل في صفوف جماعات اللاجئين، وإما – وفقاً لروايته هو – لتحصيل بعض المعرفة الدينية ... ويبقى أن نذكر أن التفاصيل الواردة بمذكراته لم تكن واضحة، إذ لم يكن ثمة ما يثبت قيامه بتحصيل ديني كالذي زعمه[٧٢].

أما الأصدقاء، فيذهبون إلى كونه صارما مفتقرا إلى روح المرح، ولو قليلا. لقد عمد "نمنقاني" إلى توجيه النقد لباي ميرزا هاييت الذي كان متزوجا من نصرانية، وذلك لاحتفالها بعيد ميلاد السيد المسيح بإحضار شجرة عيد الميلاد المعتادة في تلك المناسبة. وقد ذهب "نمنقاني" إلى ضرورة أن تترك الزوجة ديانتها لتشهر إسلامها، وبذا تصبح الأسرة بكامل أفرادها أسرة مسلمة. ووفقا لضابط أوزبكي كان في مقتبل حياته المهنية حين التقى "نمنقاني" في أحد المعسكرات الألمانية لأسرى الحرب في عام ١٩٤١، فإن "نمنقاني قد حظي بتقدير واه من الأسرى إذ كان هوسه الديني وتعصبه المعتقدي في أوجهما". هذا، ولم يكن لنمنقاني سوى نفوذ محدود أتاحه اختيار "فون منده" له. وفي خطاب بتاريخ الأول من آب/ أغسطس ١٩٥٦ من "ولي قيوم خان" إلى "فون منده"، وذلك في أعقاب ورود "نمنقاني" ميونيخ، كتب "قيوم" أنه وحتى قبل أن يغادر "نمنقاني" اسطنبول متوجها إلى ألمانيا، فإن موجات السخط عليه والشجب له كانت قد شرعت بالفعل تأخذ مسارها ... أما السبب، فلم يكن واضحا ... بيد أن "نمنقاني"، وعلى امتداد سنوات قلائل تالية، كان قد أُمطر ببوابل من الانتقادات لكونه أحد غلاة "النازية"، وأحد القادة غير الأكفاء. فعلى سبيل المثال، أدت ألمانيته الركيكة إلى جعله غير قادر على التواصل مع أبناء "الجنود المتقاعدين".

إن تاريخ "نمنقانى" النازى قد يبدو عاديا تماما بين أناس شارك جلهم فى القتال لصالح الألمان. فعلى أية حال، كانت تلك هى "خمسينيات" القرن العشرين ... حقبة اتسمت بالتناسى النسبى لما دار إبان العصر النازى ... حقبة رغب الأفراد خلالها فى التداوى بالنسيان والمضى قدماً - أما تناول الجراح والآلام تناولا مباشرا، فلم يحدث إلا خلال حقبة الستينيات. بيد أن "نمنقانى" كان، وكما وردت الإشارة آنفا، "مخلوقا شديد التسييس" عمل مباشرة كإمام للوحدات العسكرية مع الزعامات الحربية النازية، وهو ما جعله أكثر من "رجل دين" بساحات الوغى، إذ كان جزءا من منظومة سياسية أودت بالكثيرين إلى حرب يائسة ضد حليف بغيض. فضلا عن ذلك، فإن التحالفات مع النازية لم تكن هينة كما قد يحسب البعض. فعلى سبيل المثال، وفى عام ١٩٦٠، تم إطاحة "تيودور أوبرلينذر" ذاته بعد تعرية ماضيه النازى، حيث هوجم فى الدعاية السوفييتية والألمانية الشرقية لمشاركته فى إحدى المذابح بحق اليهود. هذا، وقد ثبتت الاتهامات - فتمت إطاحته ليمضى عقودا أربعة تالية محاولا تبرئة ساحته وتطهير سمعته.

وعقب مضى شهرين فقط على عودة "نمنقانى" إلى ألمانيا الغربية، شرع "الشتازى" يستهدف "فون منده" هو الآخر ... إذ أجرى تحقيقاً - فى الأغلب أن كان نيابة عن الاتحاد السوفييتى - التمس المعونة لمعرفة السبب فى أن يكون مكتب "فون منده"، ذلك المكتب البحثى الصغير، وراء كل تلك الحملات الدعائية المناهضة للسوفييت ... السوفييت - الذين كانوا، بالفعل، قد شرعوا يهاجمون "باى ميزا هاييت" ... "المستخدم" المفضّل لدى "فون منده" والأعلى قيمة. وفى الساعة السابعة من مساء العشرين من تموز/ يوليو ١٩٥٦ شن راديو طشقند هجوما ضد "باى ميرزا هاييت" ... هجوما أيدته الأدلة والوثائق إذ أشير إلى خدمته خلال سنى الحرب الكونية الثانية، وكيف زعم "هاييت" نفسه أنه قد خطط للهرب فى أعقاب

الحرب ليترك رجاله ليواجه كل منهم مصيره أيا ما كان هذا المصير. وفى النهاية، لم يشن "الشتازى" أى هجوم على مهام "فون منده"، ربما للاحتفاظ بما فى جعبته من سهام لقابل الأيام، أو لتوجيه البعض صوب "تيودور أوبرلينذر". أما ما يبدو واضحا، فهو أن رجالا من أمثال "نور الدين نمنقانى" قد كانوا عرضة لهذا التهديد أو ذاك.

إذا ... ما السر وراء قيام الألمان الغربيين، الذين لا يدينون بالإسلام، بإعلاء شأن زعيم مسلم وتبجيله إلى هذا الحد؟! إن سؤالا كهذا لم يكن ليقلق "فون منده" ورفاقه فى الحكومة ... إذ كان المحك هو كيفية إطاحة "إبراهيم كوجا أوغلو" والأمريكيين. لذا، فقد اعتبروا الأمر أمرا تكتيكيا وشرعوا فى التباحث بشأن أفكار قد تزيد من جاذبية "نور الدين نمنقانى" ودرجة قبوله لدى الآخرين.

أما البداية، فقد شهدت تعثر "فون منده" إذ كان مريضا حينذاك، حيث أصيب بأزمة قلبية فى عام ١٩٥٦ نظرا لكونه مدخنا شرها. هذا، وقد أقعدته الإصابة شهرين امتنع خلالهما عن العمل، ليبدأ بعدها فى التعافى ببطء واستعادة لياقته تدريجيا. وفى أثناء تلك الفترة، كتب "كوجا أوغلو" عددا من الخطابات لأوبرلينذر ملتمسا بعض عون ... إلا أنه مع حلول نهاية عام ١٩٥٦، كان "فون منده" قد استرد عافيته ليعمل ساعات طويلة ويكدح كدحا كبيرا ... فقد شن هجوما عنيفا على "كوجا اوغلو" لكونه جاسوسا أمريكيا. فوفقا لخطاب أرسله "فون منده" فى العاشر من كانون الثانى/ يناير ١٩٥٧ إلى "غرهارد فولفروم" بوزارة شئون اللاجئين التى كان يترأسها "أوبرلينذر" ... ذهب "فون منده" إلى أنه "بسبب عدم وجود أية مؤسسة ألمانية لتمويل كوجا أوغلو، فإن اللجنة الأمريكية للتحرير كانت مهتمة بجماعة "كوجا أوغلو" الدينية لاستخدامها كنقطة انطلاق لأنشطتها الدعائية السياسية بين اللاجئين المسلمين فى ألمانيا الغربية، وفى بلدان أبعد ... فى المشرق".

وكان الدليل، كما ذهب "فون منده"، يكمن فى المؤتمر الصحافى الذى جمع كلا من "إبراهيم كوجا أوغلو" و"غريب سلطان"، وذلك خلال آب/ أغسطس ١٩٥٦، فى أعقاب عودتهما من رحلة الحج. هذا، وقد رأى "فون منده" المؤتمر الصحافى نقطة تحول فى السياسة الدعائية لأمكومليب فى العالم الثالث. فمنذ عودتهما – وذلك وفقاً لفون منده – سعت "اللجنة الأمريكية للتحرير" إلى الشروع فى حملتها الدعائية السياسية في العالم الإسلامى. وقد كتب "فون منده"، ساخراً، إن "غريب سلطان" قد شرع فى تعريف نفسه بأنه الحاج "غريب بن سلطان"، وهو لقب شرفى يشير إلى مشاركته فى رحلة الحج، وهو ما يتنافى – وفقاً لفون منده – مع سلوك امرئ قصد الأراضى الحجازية لدواع غير دينية. كذا، فقد كان "سلطان" يسعى – كما ذهب "فون منده"، إلى التمتع بمركز قيادى داخل جماعة "كوجا أوغلو" الدينية ... وهو الأمر الذى توجب إيقافه. ووحده "نور الدين نمنقانى" هو من كان قادرا على الاضطلاع بذلك الأمر.

هذا، وقد عقدت وزارة شئون اللاجئين اجتماعا حددت فيه إطارا للدور الذى سيضطلع به "نمنقانى"، حيث ذهبت إلى أن: "السيد "نمنقانى" مخول أولا بتجميع مسلمى ألمانيا – وهم "أجانب بلا وطن" – فى رابطة دينية تنتظمهم، وكذلك الأمر للاجئين من غير الألمان – من أجل القضاء على أى تأثير أمريكى غير مرغوب فيه ... تأثير قد يكون ضارا بمصالح ألمانيا الغربية". أما "غرهارد فولفروم"، الضابط المتقاعد الذى خدم فى صفوف أسراب الدفاع الألمانية، فقد كتب أن المشكلة الرئيسية تتمثل فى كون أهداف المسلمين لا تتواءم مع الأهداف السياسية لألمانيا الغربية. ففى خطاب بتاريخ السابع عشر من نيسان/ أبريل ١٩٥٧، كتب "فولفروم" يقول: "أجده أمرا غير مقبول ولا يمكن احتماله كون الأجانب المسلمين فى ألمانيا ممن لا يوجد لديهم مأوى ولا وطن، تساء معاملتهم باستغلالهم فى مناورات

سياسية واستخباراتية ملؤها المكيدة والخداع ... وأن يتم ذلك كله على أراضى ألمانيا الغربية بما يعرض سمعتها لسوء القالة". كذا، فقد كتب أحد المسئولين بالعاصمة "بون"، أنه "إذا ما نجحنا فى إرساء جماعة دينية حقيقية، فسوف يفضى ذلك إلى نجاحنا فى إحراز النفوذ السياسى المنشود". ووفقاً لوزارة شئون اللاجئين، فإن العقبة الرئيسية هى أمكومليب، حيث ذهبت الوزارة إلى أن "السيد روبرت كيللى، من اللجنة الأمريكية للتحرير، قد زعم - مؤخراً أنه ينبغى ألا تترك شئون اللاجئين المسلمين فى أيد ألمانية ألبتة".

أما الألمان الغربيون، فقد قرروا أن يضعوا حدا للجدال حول "نور الدين نمنقانى" ... ذلك الجدال الذى طال مداه الزمنى إلى عام بالتمام ... وذلك عن طريق تعيينه كإمام أكبر لعموم مسلمى ألمانيا. ولكيما يتم ذلك، كان هؤلاء الألمان الغربيون بحاجة إلى أن تقوم الجماعات الإثنية الرئيسية بدعم "نمنقانى" ومؤازرته. وهنا ... فإن الأرقام لا تعنى الكثير - فمؤازرة جماعات متعددة ممثلة لمسلمى ميونيخ لنور الدين نمنقانى لتفى بالغرض. لذا، ففى التاسع من آذار/ مارس ١٩٥٨، عقدت إحدى كوادر المسلمين المقربين من "فون منده" ... والذين عملوا كلهم بلجان الأوستمنستريوم القومية - اجتماعا فى حانة ومطعم "لوفينبراو" بميونيخ.

وقد ذهب المجتمعون إلى وصف جماعتهم بأنها مزيج من الجماعات الإثنية الممثلة لخمسة مواطن هى: شمال القوقاز وأذربيجان وتركستان وأورال الفولغا والقرم. وقد ذكر أعضاء الجماعة التى ترأسها الناشط التركستانى المخضرم "على قنطمير" أنهم متساوون من حيث العدد مع أولئك المسلمين الذين يتبعون "إبراهيم كوجا أوغلو" ... ولو أن هذا الزعم يبقى محل تساؤل وتشكك. هذا، وقد خلص المجتمعون إلى كونهم بحاجة إلى "إمام"، وأن اختيارهم قد وقع على "نمنقانى". وللقيام بذلك الأمر، كان لابد من شكل قانونى. لذا، فقد عمدت الجماعة إلى تكوين

ما عرف بالإدارة الدينية للاجئين المسلمين فى ألمانيا الاتحادية، حيث انتخب "نمنقانى" رئيسا لها، لتصبح مكتبا حكوميا مول مباشرة من قبل وزارة شئون اللاجئين برئاسة "أوبرليندر".

أما ردة فعل "كوجا أوغلو" إزاء ذاك المكتب الحكومى الجديد فكانت مباغتة وتهكمية ... إذ ذهب إلى وصف اجتماع آذار/ مارس هذا - والذى ضم القوى المناصرة لنمنقانى بأنه "مجموعة من السياسيين المحنكين وزمرة صغيرة من أناس متماثلى الأفكار تم دعوتهم خصيصا لاختيار قيادة كهنوتية زاعمين كونهم يمثلون مصالح ألمانيا الاتحادية". ولقد كان "كوجا أوغلو" محقا فى قوله هذا ... فالجماعة كانت تجمعا سياسيا محضا بلا أدنى تفويض شعبى. بيد أن بيروقراطيى "بون" كانوا قد تنبئوا بذلك. فقبل الاجتماع المذكور بأشهر قلائل، ارتأت وزارة شئون اللاجئين أن تضفى على "نمنقانى" قبولا وجاذبية شعبيين ... موضع يمارس فيه "مسلمو ميونيخ" شعائرهم التعبدية.

على أنه لو كان "نمنقانى" قد أراد - حقاً - إنشاء مسجد لمسلمى ميونيخ لغرض التعبد وتقوى الله، لكان يمكن أن تتوفر لديه فرصة رائعة لتوحيد أولئك المسلمين وراءه، وكذا وراء مصالح ألمانيا الغربية ... إلا أن الفكرة لم تكن أبداً فكرته، كذا فلم يكن الأمر بدافع من تقوى أو ورع قط - بل إن بيروقراطيى "بون"، بالمقابل، كانت لديهم مآرب سياسية محددة تماما. فوفقا لما ذكره أحد المسئولين فى مذكرة له فى عام ١٩٥٧، "إن وجود موضع يتيح لمسلمى ميونيخ أداء صلواتهم به، حيث يمر بالمدينة العديد من الأجانب المسلمين فضلا عن أولئك المقيمين إقامة دائمة فى "بافاريا" ... سيتيح لأولئك وهؤلاء الفرصة لأداء شعائرهم وصلواتهم. إذا، فلا يمكن إغفال الأثر الإيجابى العائد على البلدان الإسلامية، وكذا الأثر ذاته على مسلمى ألمانيا - وما لذلك من عواقب محمودة

بشأن علاقات ألمانيا بالبلدان الإسلامية".

وبحلول نهايات عام ١٩٥٨، لم يكن "نمنقاني" يرنو إلى موضع للصلاة فحسب، بل تمثل المراد في مسجد متكامل الأركان. وفي هذا الصدد، حصل "نمنقاني" على دعم ومؤازرة ضابط مشاة ألماني اتسم بالمكر والدهاء ... "فيلهلم هنترساتز" – الذي ولد بالنمسا في السادس والعشرين من أيار/ مايو ١٨٨٦، وكان مساعدا لأنور باشا التركي في الحرب الكونية الأولى. كذا، فقد تم تكليفه بإنشاء أول منظمة للمتطوعين الفنلنديين، وذلك للقيام بتحرير فنلندا من قبضة الحكم القيصري الروسي. ولقاء خدماته في هذا الصدد، تم منحه المواطنة الشرفية الفنلندية. أما العام ١٩١٩، فقد شهد اعتناق "هنترساتز" الإسلام وتغيير اسمه ليصبح "هارون الرشيد بك" هذا، وقد انضم "هارون الرشيد بك" إلى أسراب الدفاع الألمانية في الثلاثين من حزيران/ يونيو ١٩٤٤، ثم ترأس سلاح الشرق التركستاني في الأول من تشرين الأول/ أكتوبر من العام ذاته... وهي الوحدة نفسها التي خدم فيها "نمنقاني" كإمام أكبر. وكان الرجلان قد تعارفا خلال الحرب الكونية الثانية حيث سيق كلاهما سجينين بواسطة الولايات المتحدة الأمريكية.

وبعد انقضاء الحرب بأعوام، عمد "هارون الرشيد بك" في الثامن عشر من شباط/ فبراير ١٩٥٩ إلى كتابة خطاب إلى رئيس ألمانيا الغربية، آنذاك، "تيودور هويس" ليشرح فيه أن نمنقاني "صديق وفي مخلص لألمانيا"، حيث جعله حبه الشديد لها يعود إليها بعد أن فرغ من بعض الدراسات الإسلامية بتركيا.

هذا، وقد أورد "هارون الرشيد بك" بخطابه ما يلي: "إن مسلمي ميونيخ يفتقرون إلى مسجد غير مسيس، على أن تلحق به مدرسة صغيرة للتعليم الديني وتعليم اللغات، بحيث تكون تلك المدرسة بمنزلة قاعة اجتماعات. إن مسلمي ألمانيا، بعكس

نظرائهم فى بلدان غربية أخرى كبريطانيا وفرنسا وإيطاليا، يفتقرون إلى كيان دينى وثقافى مركزى ذى شأن ... ألمانيا التى ما يزالون يرونها صديقاً وفياً مخلصاً للإسلام. إذا ... ألا يكون مثالياً، بل إن حق لى - كألمانى - ألا يكون من الحصافة السياسية أن نمنح موقعا لبناء مسجد لأولئك الأصدقاء الأوفياء لألمانيا؟ إنه لا يخامرنى أدنى شك فى أن المشرق الإسلامى سيعلى كثيرا من شأن رمز كهذا يدل على عمق الصداقة التى تربط ألمانيا بالمسلمين".

وبحلول نهاية عام ١٩٥٨، كانت الاستعدادات والترتيبات قد اكتملت. ففى الثانى والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر، دعا نمنقانى إلى اجتماع لإدارته الدينية الوليدة، حيث كان الهدف ... إنشاء مسجد.